مقاربة لسانية بين الجرجاني دي سوسير :

د\نورية شيخي– جامعة تلمسان

إنّ أول علم ينبت على أرضية الفكر العربي الإسلامي، هو علم النحو، ولقد بدأ منهج البحث في النحو العربي وصفيا في صورته البسيطة الأولى، التي شكلت فيما بعد الخيوط الأساسية للنظريّة اللسانية الغربية الحديثة، تلك الصورة التي ورثنا طلائعها منذ أبي الأسود الدؤلي و التي ما انفكت الحقب الزمنية تضيف إليها الكثير من الخيوط ذات الألوان الزاهية من كل عصر، لتمدها على الدوام بالنجاعة والرواء، فيزداد مع الأيام بريقها لتنتعش النظرية اللسانية العربية، ويستقيم سوقها، فتنتعش الدراسات اللغوية العربية المعاصرة مستلهمة مجدها الغابر منطلقة في منافسة النظريات اللّسانية العالمية المعاصرة.

وفي هذا السياق أعمد إلى بيان الجهود العربية القديمة المتعلقة بالنظام التركيبي للّغة العربية، وقد ينطلق عملي هذا من مبدأ الاعتماد على العلاقات النحوية المبنية على قوة التعانق بين مختلف الوحدات اللغوية، بغية الوصول إلى تعيين ما تؤديه هذه الوحدات من وظائف داخل السياقات المختلفة غير أن عملا من هذا النوع يقتضي تبيان الدور المنوط بكل وحدة في التركيب ، مع مراعاة الوضع الدلالي أي تسفر عنه الدلالة من السياق، مما يحدد القيمة اللغوية لكل وحدة من هذه الوحدات داخل التراكيب المختلفة، واضعة في الاعتبار التغيرات التي تطرأ على هذه الأبنية نتيجة تأثرها بالنظم أو التأليف، وهذا الرأي لا ينحصر في حدود ما ذهب إليه بلومفيلد1 حول معرفة المكونات المباشرة للجملة ولا مكونات هذه الأخيرة فحسب ، وإنما تذهب إلى أبعد حد يمكن الوصول إليه، بل ينبغي الإشارة هاهنا إلى معرفة الخيوط الدقيقة التي نستعين بها في تعيين وظيفة كل وحدة من هذه الوحدات انطلاقا من المنجزات التي انتهى إليها النحاة العرب القدامى. وحتى لا نخرج عن موضوع بحثنا هذا أحاول التركيز على أوجه التشابه والاختلاف بين الجرجاني وأب اللسانيات الحديثة دي سوسيركان لابد من الوقوف على أوجه يلتقي فيها الرجلان وأوجه يختلفان فيها.

أ- الجرجاني و الدراسة اللغوية :

استطاع الجرجاني إنشاء نظرية لغوية، متينة وحدد أصولها العامة، ووضع تحليلا لغويا كشف به عن طاقات العربية في منهج دقيق كما استطاع أن يجتاز ما يزيد عن تسعة قرون، ويقف على حقائق لغوية، أكدتها اللسانيات الحديثة، وذلك من خلال ما لاحظناه من تقاطعات بين نظرية النظم ونتائج اللسانيات الحديثة. فهو يتعرض للبيان ويظهر خصائصه ومزاياه من خلال تناسق الألفاظ، وبراعة الأداء و حلاوة التأتي، فيرى قارئه البيان صورة ماثلة وشاهدا قويا.ويتحدث عن الشعر، و وظيفته في تنمية الملكة اللغوية، وتحقيق الرؤية الدقيقة لجوهر الأشياء. ولما كان النحو هو الأساس الذي تنهض عليه نظرية النظم، وللنحو عند الجرجاني نكهة خاصة إذ هو الفيصل بين المعاني، و تركيب الجمل. فلا يعرف صحيح من مستقيم إلا بعد الرجوع إليه، ثم ينتقل إلى الحديث عن الفصاحة والبلاغة و البيان، والبراعة.ثم طفق الرجل يتحدث عن اللفظة المفردة التي هي اللبنة الأولى في الجملة ويرى أن الألفاظ بإفرادها لا تنمو على الأخرى ولا تفضلها، وأن الواضع و إن تعددت ألفاظه لمسمى واحد، فليس بين تلك الألفاظ يفاضل أو فرق وإنما يحدث ذلك التفوق في نظم تكاملت أسبابه، وتضامنت أجزاؤه واجتمعت أطرافه فقد وصل الجرجاني بين اللغة في نظمها، وبين المضمون في ترتيبه المنطقي فإنه قد أشار في ذلك إلى أهم نقطة في أصول الوحدة المنطقية وقسّم للعقل مكانا في الأداء اللغوي و الفني وجعله هاديا. ولقد عنى كذلك بالنفس، فهي تلك الوعاء الذي تنقدح فيه هذه المعاني إنقداحا يكفل لها قوة التأثير في القارئ أو السامع، متى برزت له صورة منطوقة أو مكتوبة على هدي من إرشاد العقل وتوجيهه. إذ يقول:" ...عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلام، أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل [2] وعلى أية حال فإن اللغة عند عبد القاهر ذلك البيان الذي يمتاز به الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [3]. فقد أوصل بين النظم و الإعجاز. مضيفا إلى ذلك النحو والبلاغة والمنطق وهو ما يمكن أن يحدث معه اتساق النظم وتلوينه، بحيث يؤدي دوره في عرض الفكرة المتعلقة بالمتكلم ثم الأشخاص الذين يفهمون طبيعة النص ولا شك من أن النظم عند الجرجاني له دلالة خاصة، ويقسم حديثه عن دلالة النظم إلى قسمين:

أولا يصل المرء خلاله إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وآخره لا يوصل إلى المراد منه بدلالة اللفظ وحده لكن بدلالة أخرى.

وعلى هذا يرى الجرجاني أن الألفاظ أصوات لغوية لها دلالة أولى ولهذه الدلالة عند النظم دلالة أخرى، ويكاد يحصر الثانية في ثلاث و هي: الكناية والاستعارة و التمثيل، و يظهر من ذلك أنها الوسائل التي يمكن أن تعرض بها الفكرة وأن الأديب هو الذي يستطيع أن يفاضل بينهما في الاختيار أما الضرورة الملحة إلى نوع خاص من هذا التعبير لا سبيل إلى الاختيار فيه وليس من العمل البلاغي و إنما هو ألصق بالنحو، و أوثق به التباسا، و يمضي في بيان هذه المعارضة الأدبية بيانا يقترن بالأمثلة والشواهد والتحليل ويمكن أن نوجز منهج عبد القاهر في النظم بأنه يعتمد على استغلال طاقات اللغة، والاستفادة منها في الخلق الإبداعي وأن عملية الخلق نفسها تتمثل في التفنن والأصالة في استغلال تلك الطاقة.

ولا نغالي إن قلنا إن نظرية الجرجاني قد اتسعت عموديا لتشمل أغلب مستويات التحليل اللغوي، وأفقيا لتمس علوم اللغة وفنونها من نحو وبلاغة ونقد أيضا. كل ذلك توصل إليه الجرجاني من خلال كشفه عن سر التآلف الكلامي في اللغة، والذي اختار أن يسميه في كتابه" الدلائل " بالتعليق.

ب– عبد القاهر الجرجاني بين النحو و البلاغة:

كما هو معلوم أن الجرجاني قد انتبه للعمل النحوي، فظهر ذلك العمل في نظريته، إذ يقول: "واعلم أنّ النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه، وأصوله ، و تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ... " [4] .

وإذا تمعنا في تحليل الجرجاني خاصة في تقديم الفاعل على فعله للتأكيد، فهو يرى في قول الشاعر: " وهما يلبسان المجد " أبلغ من أن يقال: يلبسان المجد، ويرى كذلك أن اسم الفاعل يفيد مجد الثبوت.

ثم يقيس المسألة قياسا صارما ففي القول " زيد منطلق" يماثل تماما: " زيد طويل " مجرد إثبات الصفة، أما " زيد ينطلق " فيه مزاولة. ويضع مقارنة بين هذين المثالين والبيتين اللاحقين:

لا يالف الدرهم المضروب صرتنا * لكن يسير عليها و هو منطلق

لعمري قد لاحت عيون كثيرة * إلى ضوء نار في بقاع تحرق

فيرى أن " منطلق " في البيت الأول إثبات صفة وحصولها فقط وليس مفيد؛ منطلق للمزاولة أو معنى يحدث شيئا فشيئا. وعليه فإنك إذا قلت: يمر عليها. وهو ينطلق طبعا لا يحسن ذلك، ويرى في البيت التالي أنك لو وضعت الاسم فقلت " نار متحرقة " لجفا عنه الطبع. و يجعل ذلك قولك تماما إلى: ضوء نار عظيمة فتلك الفوارق لا يؤديها فقط الاسم والفعل بل تتداخل عناصر تركيبية أخرى نستطيع أن نلتمسها إذا نظرنا إلى هذا البيت:

أو كلما وردت عظاما قبيلة * بعثوا إلى عريفهم يتوسم.

فيحلله الجرجاني تحليلا مذهلا، أو يرى أنه لو قيل: " بعثوا إلى عرفهم متوسما " لم يفد حق الإفادة. وإذا دققنا النظر فإن ذلك ليس لدلالة الفعل فقط، بل إن التركيب اللغوي يتآزر حيث نجد دلالة كلها في أول البيت، إلى جانب معناها اللغوي الذي يفيد التكرار. وإلى جانب ارتباط "وردت "بعثوا ". تلازم نغمي ومعنوي، كل ذلك يؤدي إلى ضرورة "يتوسم" الفعلية.

من المعروف أن الجملة في العربية تنقسم إلى قسمين إحداهما اسمية: تبدأ بمبتدأ وخبر، وفعلية تتألف من فعل وفاعل. اسم و فعل، ومنها تتعرض لتغيرات ويكاد الجرجاني في حديثه عن التقديم والتأخير يؤصل أصلا أي أن تقديم الشيء يكون على وجهين. أول يقال على نية التأخير مع التقديم ومن ذلك تقديم الخبر والمفعول على الفعل مع إعرابها على، ما كان عليه وتقديم لا على نية التأخير. بل الخبر فيه مبدأ " المنطق زيد" بعد قولنا زيد المنطق، ومثل ذلك يقال في الاستفهام بالهمزة [5].

أأنت فعلت هذا، كما جاء في قوله تعالى: (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إبراهيم)[6] فإن القصد هنا من تقديم أنت، حمله على الإقرار بالفعل الحاصل الذي لا مناص من حدوثه ولا جدال في وقوعه ومنه قول الشاعر:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي * ومسنونة زرق كأنياب أغوال

والقصد من التقديم هنا، هو إنكار الفعل والاستغراب من حدوثه والدهشة المنكرة لوقوعه. وشبيه بالاستفهام والقصد منه، النفي فالشاعر يقول:

وأنا أسقمت جسمي به * ولا أنا أضرمت في القلب نار.

السقم حاصل وواقع، ولكن ينفي جلبه له واتصافه به، وهكذا فالجرجاني يرى أنّ القصد من التقديم إيصال معان أخرى.وأن التقارير في النظم دليل عليها، وبرهان لها، وتأكيد لوجودها وكذلك القول في حذف أحد أجزاء الجملة أو فصله عنها. أما عن الجانب البلاغي فإننا نكفي التمثيل بالاستعارة وهي عند الجرجاني أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتؤثر، ألا تصرح بالشبه في صورة محددة بينه، تستعين منها أركانه الأربعة: المشبه و المشبه به، أداة التشبيه، ووجه الشبه، إلى عملية يراد بها طي التشبيه وتحويله إلى صورة فنية أخرى فتقصد مثلا إلى المشبه، وتطلق عليه لفظ المشبه به، لمعان مشتركة تلاحظ بينهما، وتلك المعاني صوغت أن تطلق لفظ هذا على ذاك. فمثلا: " رأيت أسدا "وهي استعارة تصريحية، لأن المشبه به مصرح به فيقول: ضرورة التفريق بين نوعي الاستعارة؛ وهنا أصل يجب ضبطه، المشبه، المشبه به على ضربين أحدهما أن تنزل له منزلة الشيء. وتذكر بأمر قد ثبت له. كقولك: " رأيت أسدا " تريد به إنسانا يبلغ في شجاعته وقوته حد الأسد والثاني أن تجعل ذلك الأمر الذي يحتاج في إثباته إلى عمل تحتال عليه كقول لبيد: " إذا أصبحت بيد الشمال زمامها " فإنك هنا قد شبهت الشمال برجل ذي بأس، ثم حذفته، وبرهنت على وجود فكرة التشبيه باليد المضافة إلى الشمال .[7]

وبالتالي فإن مراد الاستعارة في قوتها، وأصالتها إلى التوليد والتفنن في تقليب المعاني، واستهلاك طاقة اللغة في التعبير عن الفكرة. ومن هذا المنطق قسم الجرجاني الاستعارة إلى ما هو خاص، لا يتطاول إليه إلا فحول الشعراء، و الكتاب الذين يتمتعون بسعة العقل، و صفاء الذهن، كما يقول الشاعر:

ولما من منى كل حاجة * و مسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا * و سالت بأعناق المطي الأباطح .

وقول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا * أنصاره بوجوه كالدنانير[8].

أما الاستعارة العامة، فهي المألوفة التي توارد عليها الشعراء، إذ لا جدال في أن الاستعارة الخاصة تحتاج إلى طاقات جديدة، يكتبها الشاعر من خبرته بالمعاني، والكشف عنها. وربما كان أبو تمام من أغوص الشعراء على الاستعارة، وقد يغرب فيها أحيانا، وذلك لثقافته العميقة، وإدراكه

الواسع، ومن هنا يذكر الجرجاني الأمثلة ويفيض في إيراد الشواهد التي أدى بها النظم، إلى أن تكون ثقيلة على النفس مضطربة في الذوق، بعيدة عن منازع الحسن والجودة والدقة.فالجرجاني حدد أسباب الفساد في النظم في التقديم والتأخير، وكثرة إيراد الحشو أثناء النظم نفسه.

وقد ربط الجرجاني مفهوم النظم بالقرآن الكريم، إذ رأى أن الإعجاز القرآني قد تأتى بحسن النظم، ودقة التأليف وليس من الألفاظ المفردة؛ ذلك أن الألفاظ قد وجدت واستعملت قبل نزول القرآن ومن ثمة تجاوز مستوى الألفاظ المفردة إلى مستوى العلاقات التركيبية، فأعاد قراءة التشكيل اللغوي للتركيب في ضوء العلاقات السياقية المقامية؛ فارتقى بمفهوم النظم إلى نظرية علمية تبحث في وظيفة اللغة الأساسية كأداة اتصال والإبانة عن الأغراض بربط معاني النحو بالسياق والدلالات العقلية.

فالنظم يقوم أساسا على معاني النحو. ولا مناص للناظم من معرفة النحو. والنظر في وجوهه وفروقه، حسب ما تقتضيه الأغراض من كل هذه العبارات يتضح للقارئ أن الجرجاني يركز على معاني النحو في تحديد مفهوم النظم باعتبارها اللبنة الأولى التي يقوم عليها النظم.

ج – أسس النظم عند الجرجاني :

إن المتمعن في دلائل الإعجاز حتما سيتبين له أن النظم عند الجرجاني لا يقف عند حدود معاني النحو فحسب، وإنما ثمة مستويان آخران يستند إليهما النظم حتى تتكامل صورته ويتحقق مدلوله. وبناء على هذا فإن أسس النظم عند الجرجاني ثلاثة تنوعت بين مستوى نحوي، دلالي وثالث لغوي ونظرا لأن موضوع دراستي هو التركيبي النحوي سأكتفي بهذا المستوى تاركة المستويين الآخرين لدراسات مستقبلية.

1 – الأســـــاس النـــحـــوي : إن الغرض من معاني النحو ليس شكليا إعرابيا وهذا يتضح من سياقات دلائل الإعجاز، إذ لا يرى للحركة الإعرابية قيمة خارج الوظيفة التي تدل عليها، يقول الجرجاني:" ولا يجوز إذا عدت الوجوه التي تظهر بها المزية، أن يعد فيها الإعراب ذلك أنه مشترك بين العرب كلهم [9].

وبهذا فإن الجرجاني قد تجاوز دائرة الصواب والخطأ وخلّص النحو من النزعة الشكلية، ونظر إليه بوصفه أساسا يمكن اعتماده لبيان الجودة في الكلام. كما أن معاني النحو عنده لا تعني مراعاة

النمط النظري لبناء الجملة، كما تحدده قواعد التركيب؛ لأن التركيب يصل قمة الفن بغياب بعض عناصره مثل الحذف والتشبيه و غيرها من وجوه البيان.

2 – مباحث النظم :

بحث الجرجاني في جملة من المواضيع ،عند تطرقه للتراكيب اللغوية في إطار النظم، وقد حاولت أن أعتمد على بعض من هذه المواضيع التي أطال البحث فيها وأكد على دورها في جزئياتها.

أ– الإسناد:

يعتبر الإسناد من أهم المباحث التي خاض فيها الجرجاني، فلا يخلوا من هذا القانون الكلي الذي بموجبه تتحقق الفائدة، دلالة و تركيباً وإن لم يكن الجرجاني فضل الأسبقية والتأصيل لهذا القانون، إلا أنه يشهد له الفضل الكبير في توسيع مفهومه، وإثراء موضوعه، فكثيرا ما تطرق علماء اللغة والنحو بخاصة لهذا القانون في جانبه التركيبي. إلا أن الجرجاني قد عالج الموضوع، متجاوزا التركيب إلى الدلالة من خلال وقوفه على العلاقات الإسنادية –بنوعيها الحقيقي والمجازي – وما تحققه من أغراض بلاغية.

لقد أدرك الجرجاني بعبقريته الفذة، أن قانون الإسناد ظاهرة عامة في كل اللغات، لم تختص به العربية فحسب، إنما هو قانون عقلي، يقول: " و هو شيء يعرفه العقلاء في كل جيل وأمة، وحكم يجري عليه الأمر في كل لسان و لغة "[10].

وعن مفهومه للإسناد وعلاقته بالكلام يقول الجرجاني: " اعلم أن معاني الكلام كلها معان لا تتصور إلا فيما بين شيئين، والأصل الأول هو الخبر، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه، عرفته في الجميع ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس، أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به، ومخبر عنه"[11].

يؤكد الجرجاني في هذا القول على العلاقة التلازمية بين المسند والمسند إليه، إذ لا يوجد الأول في غياب الثاني ولا وجود للثاني إلا في وجود الأول. وقد أشرت إلى ذلك في الفصول السابقة كما سوف أتطرق إلى ذلك بالتفصيل في الفصول اللاحقة، وتتجلى أهمية الإسناد في تحديده لنمط الجملة.

ب –سياق الحذف و الذكر :

تمكنت دراسات البلاغيين من معالجة سياقات الكلام ضمن علم المعاني حيث بينت إنزياحات النظام اللغوي عن الأصل من المنطلق جاء الاهتمام بسياق الحذف و الذكر المألوف في الجملة العربية ذكر كل عناصرها ، غير أن انحراف الكلام في المجال التطبيقي يسقط إحداها و تنوب عنه دلالة القرائن المقالية أو الحالية والظاهر أن هذا الصنيع يبلور جانبا من تحقق أدبية البنية التركيبية فتحدد الحاجة الفنية للتعبير عن استخدام هذا النسق من الأداء بحيث يكون العدول عنه إفسادا له " فترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين."[12]

يتضح أن سياق الحذف يقتضيه كلام إذ يعبر الناص عن ما يريد ويترك مساحة للقارئ حيث يحذف ما من شأنه أن يفسح المجال لاستحضار الغائب ،لذا أفرد له عبد القاهر الجرجاني مبحثا لسياقات الحذف والذكر أعرب من خلاله على أنه باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر لهذا يورد الجرجاني نماذج عن سياقات الحذف يؤكد عبرها حاجة الأداء الفني لمثل هذه الانزياحات اللغوية فبدأ بحذف المبتدأ وبذكر أنه يطرد في مواضع القطع والاستئناف حينما يبدءون بذكر الرجل ويقومون بغض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ مثال ذلك:

هم حلوا من الشرف المعلى * ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

بناة مكارم و أساة كلم * دماؤهم من الكلب الشفاء [13]

أي: هم بناة، فقد أضمر المبتدأ. فالحذف "لم يغير من المعنى و لم ينقص الدلالة، وإنما جاء كضرورة فنية اقتضاها سياق الكلام فلم يكن في حاجة لحشو العبارة بألفاظ يمكن إدراك كنهها من خلال التركيب اللغوي الذي يترك موقعا في النفس حيث يجد القارئ لها لطفا وظرفا إذا مر بموضع الحذف منها ثم قلب النفس عما وجد ، و ألطف النظر فيما حس به، ثم تكلف أن يرد ما حذف الشاعر، فأخرجه لفظه، وتوقعه في سمعه "[14].

إن تعليق الجرجاني على نماذج الحذف يؤكد حقيقة لزوم الإضمار في بعض مواضع كونه يرتبط بحاجة المتكلم وبطبيعة التركيب الذي يحقق جانب الدلالة بالاستغناء عن بعض عناصر الجملة وإضمارها مع إبقاء على قرائن تدل عليها .

يعقب الجرجاني على ثلة من السياقات التي يحذف فيها المفعول، فإذا كان جمع من النحاة واللغويين لا يرون في المفعول عمدة بل هو فضلة زائدة يمكن حذفها، فإن الجرجاني رأي آخر يذهب فيه إلى أن ارتباط عناصر الجملة واكتمال حضورها ضرورة لابد منها لقيام العلاقات الإسنادية فيما بينها. ذلك أن حال الفعل عنده مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل " فإذا قلت: ضرب زيد فأسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلا له لا أن تفيد وجود الضرب في نفسه وعلى الإطلاق، كذلك إذا عديت الفعل إلى المفعول فقلت: ضرب زيد عمرا كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأقل بالثاني ووقوعه عليه فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما من أجل الدلالة على تلبس المعنى الذي اشتق منه بهما " [15].

ومن ثمة تتأكد مكانة المفعول في التركيب اللغوي، إذ يعد ركنا أساسيا في توضيح الدلالة وإجلاء الغموض والالتباس. لذا فإن حذفه حتما من نظام السياق. ولا يأتي الحذف فيه إلا إذا كان القصد منه أن يثبت المعنى في نفسه فعلا للشيء، لأن ذكر المفعول تنقض الغرض وتغير المعنى كما يرد الحذف إلى طبيعة الصياغة ومقتضياتها حيث يكون فعل المفعول مقصودا معلوما إلا أنه يحذف لدليل الحال عليه أو يكون فعل المفعول مخصوص إلا أننا نتناساه ونخفيه قصدا للإيهام بأنه غير مقصود، ويمكن أن يأتي في سياق يكون فيه المفعول معلوما مقصودا من حيث أنه لا يوجد للفعل المذكور مفعول سواء بدليل الحال وإنما يضمر ولا يفصح عنه لتوافر العناية على إثبات الفعل الفاعل وتخليصه له.

من الملاحظ أن أسلوب الحذف أخذ حظه من البحث والعناية. ولا نغادر سياق الحذف إلا بالتعرض لمقابله وهو سياق الذكر. فقد كان له نصيب من البحث لا يقل عن نظيره ونحسب أن أهميته تكسب التركيب بعدا جماليا وتضفي عليه المسحة الأدبية، ولعل هذا الأمر دفع بالبلاغيين ودارسي الإعجاز إلى معالجة سياقات الذكر والكشف عن خصوصياتها ومميزاتها داخل التركيب.

فالذكر أصل الأداء الفني يمثل جانبا موضوعيا في الصياغة باعتبارها قائمة على الوضع اللغوي.[16] حيث لا مجال لإضمار أجزاء الجملة كلها، بل لابد من ذكرها حتى يستقيم المعن وتكتمل الدلالة والملاحظ أن الناص يستغل إمكانات لغته الخاصة في التعبير عما يريد فيذكر أجزاء الجملة، وقد يزيد المعنى وتعميم الفائدة. ذلك أنه يملك حسا إبداعيا ونية جمالية تجعل من الذكر قيمة فنية وهدفا بلاغيا حيث تحقق الإفادة في الإيضاح أو التعظيم من شأن الأمر أو تحقيره من ذلك قول الشاعر:

النفس راغبة إذا رغبتها * و إذا ترد إلى قليل تنقع

فالمخاطب في هذا البيت يود إيصال المعنى للسامع بالتصريح باللفظ من غير إضمار حتى يفهم المقصود. كما أن سياقات الذكر تتصل في أحايين كثيرة بطبيعة الصياغة فقد يلتبس المعنى إذا لم يزد في ذكر أجزاء العبارة ومن قوله تعالى: (أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)[17] فذكر المسند إليه و هو (أولئك) والثاني لقصد زيادة الإيضاح والتقرير وأن أولئك الذين ثبت لهم الهدى من ربهم وأنفسهم الذين ثبت لهم الفلاح فتكرر أولئك أفاد اختصاصهم بكل واحدة من الأمرين [18]. غير أن خصائص سياق الذكر لا تعني الإسراف في حشو التركيب بعبارات لا فائدة منها سوى أنها تثقل الأداء الفني والدلالي لذا نجد الجرجاني يقف منه موقف الرفض " فهو ذم لأنه خلا من الفائدة و لو أفاد لم يكن حشوا، و قد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعا من القبول أحسن موقع، ذلك لإفادته إياك عن مجيئه مجيء ما لا يعول في الإفادة عليه فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها " [19].

من هنا يتبين لنا أهمية سياق الذكر في التركيب ولكن تبقى ضرورة توظيفه بقدر ما يسمح به السياق ومقتضياته أما وإن تكلف الناص في استعماله لهذا السياق حد الشطط، فإن المتلقي يلتمس ثقلا و حشوا لا طائل منه و لعل هذا ما آثار انتباه الجرجاني وأكد عليه في نص السابق الذكر ومن ثمة تتضح عناية الإعجازيين بأدبية البنية التركيبية و الوقوف على سياقاتها بالبحث و المعالجة وإن كنا نعتقد أن مدارساتهم انصبت في الأول على بيان الإعجاز القرآني إلا أنها تناولت مثل هذه القضايا الأدبية و البلاغية للكشف عن معالم الأدبية ونحسب أنهم التمسوا مواطنها في أحايين كثيرة ليبقى مجال محاصرتها مفتوحا على عديد الدراسات .

من هذا المنطلق فإن أدبية النص تستمد عناصرها من أركان البناء النصي فقد تبين لنا من خلال تتبع مستويات النظام النصي من الصوتي إلى التركيبي وقد تمكن الإعجازيون من الوقوف على خصائص هذه البنيات ومميزاتها التي تمنحها صفة الأدبية فتتآلف فيما بينها في نسيج لغوي متماسك الأجزاء غير أن البناء النصي لا يشكل إلا بالإدراك الشمولي للظاهرة الأدبية، ويبدوا أن هذا ما بلورته نظرية النظم التي سلطت الضوء على البنية اللفظية والمعنوية وكذا التركيبية وألغت النظرة الجزئية للبنـاء .

من هنا نفسر اهتمام رائد النظرية الجرجانية، بأدبية البنية التركيبية وتمييز السياقات التي تعتريها وتتبع التغيرات التي تطرأ عليها من ذلك سياق التقديم و التأخير، والحذف والذكر، التعريف والتنكير ، الوصل والفصل وسواها واتضح مدى قدرتها على تكوين صورة واضحة لأدبية النص غير أن الملاحظ في مدارسته لهذه السياقات تناولها التركيب في جزئيات تقتصر على الجملة أو الجملتين، أما و إن عالجها في نصوص لتمكن الدارس من استخلاص معالم فنية و جماليات أدبية من شأنها أن تتكون عبر هذه السياقات ذلك أن الدراسة الجزئية التي تعتمد على نموذج واحد نقصد بذلك – بيتا شعريا على حدا – وإن كانت تمثل لخصوصية التركيب إلا أنها تبقى قاصرة عن كشف جميع الخصائص الفنية والجمالية التي يتسم بها السياق، وهذا يعني أن تأصيل الإعجازيين الأدبية من منطلق نظام النص، اعتمد على القراءة الجزئية للبنيات المكونة للنظام في أحيان كثيرة، إذا ما استثنينا نظرية النظم، فإن النتائج التي توصل إليها دارسوا الإعجاز تبلور تصورا خاصا لمفهوم الأدبية، غير أنه لا يعني التصور الشامل والمكتمل للجزئيات المكونة لها و لطرائق حدوثها.

د – الجرجاني بين التقليد والتجديد:

لم يكن الجرجاني بالبعيد عن الساحة التي قرنت الدرس البلاغي بقضية الإعجاز القرآني. فقد أدرك أن البحث عن الإعجاز ليس سبيله اللفظ ولا المعنى فاللفظ مالك للمعنى "يؤلف من لفظ ومعناه" و ليس سبيله أيضا البحث عن الاستعارة أو الكناية أو سواهما، فقد تطرق الجرجاني أثناء عرضه لقضية اللفظ والمعنى في مدخله للجاحظ فيقول:

" ما في اللفظ لولا المعنى و هل الكلام إلا بمعناه، فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر الأمر بالضد إذا جئنا بالحقائق"[20]. فبذلك

يحمي برأي الجاحظ و يؤوله لإبراز شيء ما، فيتمهل بالدعوة إلى أهمية التصوير والصياغة فيقول : "ومعلوم أن سبيل الكلام، سبيل التصوير والصياغة، وإن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه"[21].

ومن ثم ينصب على الجاحظ قائلا: وإذا أمعنت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ، وانتهى إلى التسوية بين الخاصة و العامة، ثم يقول الجاحظ كما ورد في الحيوان :" المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"[22].

وهكذا بحث الجرجاني في اللفظ والمعنى وظلت مباحث النحو كما هي واجبة أن تكون، والتي أجادها سيبويه هي الثراء الأوحد للجرجاني في علم المعاني الوظيفية الأساسية للنحو. ولم يظهر شكري عياد تأثر الجرجاني في وصفه لفكرة النظم بفكرتي المحاكة والوحدة لدى أرسو، وحجته في ذلك :

أنك لو تأملت هذه الفكرة عند الجرجاني والتي يفتخر بها، فإن البلاغة تمس كل كلام بليغ من شعر و نثر؛ فتلك الفكرة بعيدة عن فكرة الوحدة، فمتى ينقلها نقلا مفهوما فنجد بن سينا يشير لها ويدقق في ذلك، والفرق يكمن في أن الجرجاني حصر الوحدة في الجملة، ولم يمدد نظامها إلى القطعة الكاملة [23]. ومنه فإن الباحثين يرون أن الدرس البلاغي عند الجرجاني في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، كان المصدر الأساسي الذي استقى منه البلاغيون مادتهم، فهو لم يهتم بالتعريف ولم يؤكد كما صنع السكاكي في مفتاح العلوم، إنما أقام دراسته على أساس من الدلالة إذ تم تطويرها، ثم النقل و صوره. فامتاز الجرجاني عن عصره بأنه أقدمهم جميعا على إبراز الأصول و القواعد التي ترتكز عليها نظرية النظم. ويعد كذلك الواضع لأصول البلاغة العربية، فليس هو أول من تكلم عن النظم، إنما الفكرة كانت موجودة، و الكلام فيه عرفته أجيالا قبله، وأمم أخرى، ممن عنوا بالدرس البلاغي موصولا بأثر فني توافرت له أسباب الخلود و الإبداع. فقد عرف الهنود النظم و فصلوا القول فيه كما عرفه اليونان وما دفع الهنود في الحديث عن ذلك كتابهم الديني الذي قالوا بإعجازه لخصائص فنية يمكن الكشف عنها، ومن الذين أثارهم هذا

الموضوع البيروني، في كتابه " تاريخ الهند "، فقد أشار إلى ذلك، الإعجاز وأثره في تبسيط الدراسة النقدية عندهم.

وكانت نظرة الجرجاني لإشكالية النظم تتجلى من خلال قوله : "و هاهنا أمر عجيب، وهو أنه معلوم لكل من نظر أن الألفاظ من حيث هي ألفاظ وكلم ونطق لا تختص بواحد دون الآخر، وإنما إذا توخي فيها النظم، وإذا كان كذلك كان من رفع النظم من اليدين و جعل الإعجاز يعمله في سهولة الحروف و جريانها "[24].

وقد حصر النظم عند الجرجاني فيما يلي:

- فكرة يراد أداؤها.
- ألفاظ تختار على قدر هذه المعاني.
- جعل التركيب ملائما لترتيب المعاني في النفس.
- ترتيب الألفاظ على ما تقتضيه صناعة النحو.
- اختيار الألفاظ على أساس ملائمة الحس للفكرة.
- استنبط المعاني الثانية من واقع النظم.

ومن هنا نقول أن نظرية النظم، قد اتخذت في العصر الحديث أساس التجديد البلاغي في الدرس الحديث ... أما فيما يخص النظرية التي أفاد بها، ابن جني فإن هناك تكاملا بينهما وبين نظرية الجرجاني؛ فابن جني في حديثه عن اللغة من منطلق بنيوي وتحدث عن المفردات فقط. والجرجاني انطلق من منطلق بنوي وظيفي، إذ اشتمل كلامه نظم الكلام. ونظر للغة على أنها وسيلة اتصال بين الناس، فانصب اهتمام الاثنين على كشف قوانين النظام اللغوي. فيتم ذلك على أساس منهج علمي، يقوم على تعميم ما يتم ثبوته على كثير من الحالات على غيرها من الحالات المماثلة. والجرجاني كابن جني جوز التوقيف، والاصطلاح معا في أصل اللغة. وبين ارتباط الكلمة في نشأتها بالجملة؛ وهذا يعني أنّ اللغة نظام لربط الكلمات بعضها ببعض. وخلاصة لما سبق نقول إن نظرية الجرجاني و ابن جني متكاملتان، وتشكلان جانبين لنظرية واحدة تعبر عن اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي التي تقوم على الثنائية من جهة، ووحدة الشكل والمضمون من جهة أخرى، وتلازم اللغة والتفكير من جهة ثالثة .

واتخذ موقفا علميا فذا، " ذلك أنه ثبّت قانونا دلاليا انتظرت الدراسات الحديثة ما يقارب عشرة قرون ليصاغ على يد العالم السويسري دي سوسير في مطلع القرن العشرين ألا وهو: عشوائية الألفاظ وقيمتها العرفية الاجتماعية، فأشكال الكلمات ليست بداية على شيء ولا ترتبط في هيئتها و أصواتها بمدلولاتها – الأشياء و الأفكار – وإنما يتم الربط بين هذه الأشكال اللغوية وما تدل عليه بالتفاهم الاجتماعي أي بالوضع اللغوي " [25]. وقد رأينا أن نقف على بعض ما أورده هذا العالم كتابه، وذلك بغية الكشف عن أهم المقاربات بين أفكار الجرجاني والباحثين المعاصرين، وسنحاول التعرض في هذا العمل :

أ- بين عبد القاهر الجرجاني و دي سوسير :

يطالعنا الجرجاني في استغراب كبير: " هل يُتصور أن يكون بين اللفظيين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدّل على معناها الذي وُضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به حتى يقال إن رجلا أدلُّ على معناه من فرس على ما سمي به. وحتى يُتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر، فيكون الليث مثلا أدل على السبع المعلوم من الأسد، وحتى لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية، ساغ لنا أن نجعل لفظة رجل أدّل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية " [26]. يشير هذا النص إلى أن العلاقة الموجودة بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية عشوائية لا يحكمها وازع طبيعي، فلا يعقل أن تكون مثلا لفظة رجل أدل على ما وضعت له من كلمة فرس، فلو أن واضع اللغة كان قد قال"ربض " مكان " ضرب " لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد " [27] .

وبعد مرور عشرة قرون يطالعنا دي سوسير قائلا إن الرابط بين الدال والمدلول غير طبيعي، فهو عشوائي، وإن واضع اللغة حين أطلق الأسماء على كاهلها لم يراع أدنى ارتباط .

ولندع هذا جانبا، ونذهب إلى العلاقات السياقية، إن أول ما أكده سوسير هو" أن اللغة منظومة لا قيمة لمكوناتها أي لعلاقتها القائمة فيما بينها، وبالتالي لا يمكن للألسني اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة بل إن لزاما عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات " [28].

رأى الجرجاني أن اللفظ لا يحمل قيمة في ذاته ، وأنه كيان مستقل قائم برأسه وأن قيمته تكمن في تلك العلاقات التي يقيمها داخل النص عن طريق عملية النظم .

فإذا كانت الألفاظ في اللغة مجرد دوال وضعية اصطلاحية اتفاقية وحتى قوانين النحو التي تربط الألفاظ بموجبها في علاقات داخل السياق هي بدورها قوانين، لا يملك المتكلم حق رفضها، فهو مجبر على الالتزام بها .

وبالتفاتة بسيطة إلى هذه القوانين التي أوردها في خطبة الكتاب، يمكننا القول أن عبد القاهر قد استطاع أن يفرق على نحو ضمني بين اللغة بمعنى النظام النحوي الراسخ في وعي الجماعة، والكلام بمعنى التحقق الفعلي لهذه القوانين في حدث كلامي بعينه يقول: " ومختصر كل الأمر أنه لا يكون الكلام من جزء واحد، وأنه لابد من مسند ومسند إليه، وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة " كأن " و أخواتها، ألا ترى أنك إذا قلت: " كأن يقتضي مشبها ومشبها به كقولك: كأنّ زيدا أسد وكذلك إذا قلت " لو " و" لو " وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جوابا للأولى ." [29]

وهذه التفرقة هي التي أرسى دعائمها دي سوسير حين رأى " أن اللغة كنز يدخره الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة عبر ممارسة الكلام وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة، وإنما عند الأفراد". في كل دماغ وتحديدا في أدمغة مجموعة أفراد، إذ إنها لا توجد تامة عند الفرد وإنما عند الأفراد، وهذه المنظومة التي تدعى لغة لا تتجلى إلا بفعل تحقيق فردي لها، وتعني الكلام فينبغي إذا تحديد مجموعة القواعد المجردة التي تتحكم بهذه المنظومة المشتركة بين الأفراد والمتواجدة في تحقيق كلامي " [30].

ينطلق الجرجاني من هذه التفرقة ليصوغ مفهوم النظم الذي يميز به كلام عن كلام، لا على أساس المستوى الصوتي والمستوى النحوي، وإنما من حيث الجانب الفني الأدبي.

واعتمادا على أن قوانين النحو هي القوانين الفاعلة في مستويات الكلام فإن الكلام الأدبي دون غيره يعبر عن فاعليته العقلية. وعلى مستوى النظم تتحقق للمتكلم أقصى درجات الحرية الممكنة داخل قوانين اللغة ، " فليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه و أصوله، وتعرف مناهجه، التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل منها شيء " [31]. هـذا النص يبين لنا أن علم النحو يتطابق مع النظم بدليل أسلوب القصر، " ليس النظم إلا ... علم النحو ".

ومما يجب أن نحكمه في هذا المجال أن عبد القاهر الجرجاني كان يفرق بين أصول النحو وهي قوانين اللغة التي وضعها في مقدمة الكتاب، وعلم النحو، وهو ما حاول إرساء دعائمه من خلال الدلائل وهو الذي يحصر الخصائص الفنية، ويفرق بين مستويات الكلام والدليل حديثه عن أصول النحو على أنها قوانين مجملة.

أما علم النحو أي النظم فيقول فيه: " وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي يراها في قولك: " زيد منطلق " و" زيد ينطلق ".... وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج .... وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع .. فيعرف لكل ذلك موضعه. ويجيء به حيث ينبغي له وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى. نحو أن يجيء ب (ما) في نفي الحال، وب (لا) إذا أراد نفي الاستقبال. ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه "[32]. وليست هذه الأمثلة إلا أمثلة للتدليل على فروق في التراكيب وهي التي رأيناه يفرد لكل منها فصلا قائما برأسه. مما يقوي في أذهاننا أن عبد القاهر أراد أن يقيم رابطة بين الأدب وعلم النحو. فالفروق بين الإخبار والاستفهام، أو التقديم والتأخير هي فروق في الدلالة، وهذه الفروق هي مدار المعنى. وقد استعمل عبد القاهر كلمة " أسلوب " للدلالة على هذه التفرقة فيقول: " واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء ، و أهل العلم بالشعر وتقديره و تمييزه، أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرضه أسلوبا و " الأسلوب " ضرب من النظم. وإذا تمعنّا في النصوص التي أوردها الجرجاني في كتابه، نجدها تدل دلالة واضحة على أن عبد القاهر لم يكن من أصحاب الصنعة، فإنه كان يدرك إدراكا تاما فاعلية المتكلم، ودوره في تشكيل الكلام. وهذا ليس عيبا لأنها لغة عصره. فاستعماله لعبارات شائعة في التراث لا ينفي كونه يعي وعيا حادا الفرق بين تشكيل المادة الخام، ونظام المعنى في الشعر وإنما ذلك من قبيل المقارنة التي تؤدي إلى كشف المعنى المراد. فالشاعر لا يضع الألفاظ، ولا يحدد دلالتها، ولكنه يعيد تشكيلها في علاقات جديدة وفق تصوره الخاص، الشيء الذي يمنع الدالات سلطانها داخل التركيب.

فمزية الكلام لا تتحدد بالفروق التي تحدثها المعاني النحوية، بل لا بد من القدرة التي تمكن الشاعر من توظيف هذه الدلالات بما يكفل له إبراز مكابدته أو معاناته داخل النص. وهو ما سنعرض له عند تشومسكي بمصطلحي الكفاءة و الأداء .

فاللغة لا تقتصر على الألفاظ بل تمتد إلى الدلالات النحوية، يقول " وغلط الناس في هذا الباب كثير، فمن ذلك أنك تجد كثيرا ممن يتكلم في شأن البلاغة إذا ذكر أن للعرب الفضل والمزية في حسن النظم والتأليف وأن لها في ذلك شأوا لا يبلغه الدُخلاء في كلامهم والمولدون جعل يعلل ذلك بأن يقول، لا غرو فإن اللغة لها بالطبع ولنا بالتكلف، ولن يبلغ الدخيل في اللغات و الألسنة مبلغ من نشأ عليها، وبدأ من أول خلقه بها. و أشباه هذا مما يوهم أن المزية أتتها من جانب العلم باللغة، وهو خطأ عظيم وغلط منكر يقضي بقائله إلى رفع الإعجاز من حيث لا يُعلم، وذلك أنه لا يثبت إعجاز حتى ثبتت مزايا تفوق علوم البشر وتقصر قوى نظرهم عنها. ومعلومات ليس في متن أفكارهم و خواطرهم أن تقضي بهم إليها، وأن تطلعهم عليها. وذلك محال فيما كان علما باللغة لأنه يؤدي إلى أن يحدث في دلائل اللغة ما لم يتواضع عليه أهل اللغة وذلك ما لا يخفى امتناعه في عقل. واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ولكنّا أوجبنا هذا للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها.

فليس الفضل للعلم بأنّ الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ وثمّ له بشرط التراخي وإن كذا وإذا لكذا ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعرا وألفت رسالة أن تحسن التخير، وأن يعرف لكل من ذلك موضعه. وأمر آخر إذا تأمله الإنسان أنف من حكاية هذا القول فضلا عن اعتقاده وهو أن المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراده الواضع فيها لكان ينبغي أن لا تجب إلا بمثل الفرق بين الفاء وثم وإن وإذا وما أشبه ذلك مما يعبر عنه وضع لغوي. فكانت لا تجب بالفصل وترك العطف بالحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ما هو هيئة يحدثها لك التأليف، ويقتضيها الغرض الذي تؤم والمعنى الذي تقصدُ، وكان ينبغي أن لا تجب المزية بما يبتدئه الشاعر أو الخطيب في كلامه من استعارة اللفظ للشيء لم يستعر له وأن لا تكون الفضيلة إلا من استعارة قد تعوقت في كلام العرب وكفى بذلك جهلا " [33].

نص طويل يؤكد أن مهارة المتكلم تتمثل في مقدرته على التخير بين الممكنات المختلفة التي تطرحها اللغة في معاني النحو، من هذا المنطلق يطبق عبد القاهر مجازا آخر يقارن فيه بين الألفاظ والذهب والفضة من حيث علاقة الشاعر أو المتكلم بمعاني النحو.

فيعقد قياسا يجمع فيه بين الأصبـاغ ومعاني النحو، وقياس يقيمه بين المادة الخام وألفاظ اللغة[34]. يخرج بتصور لمفهوم النظم ولدور المتكلم في تحقيقه، فألفاظ اللغة تشبه المادة الخام التي يصنع منها المتكلم أسلوبه طبقا لقوانين النحو المعيارية.

ومعاني النحو هي الفروق الدقيقة داخل قوانين النحو تشبه الأصباغ التي تعمل بها الصور، والألفاظ هي الخيوط التي تتآلف وفق قواعد خاصة.

. لقد فرق سوسير بين اللغة والكلام وأنهما ليس شيء واحدا؛ اللغة هي الجانب الاجتماعي الخارج عن نطاق الفرد، أما الكلام فهو الجانب الفردي، فنجد سوسير اعتبر الألفاظ رموزا للمعاني، و قد رأينا الجرجاني لا ينكر أن يكون الفكر يتعلق أصلا باللفظة المفردة، ولكنه يؤكد أن الألفاظ أوعية للمعاني و هذا شيء هام، لأنه ربط المعنى بالفكر، و لم يقل بهذا الرأي قبله أحد ... وبالنسبة للدليـل (الدال والمدلول) حدد سوسير الدليل اللغوي بأنه: كيان واحد لا يتجزأ وذو وجهين متصلين أي أثر على الوجه الأول يظهر على الثاني. وقد سبق أن فسرنا ذلك في الفصول السابقة. وفي الأخير نقول إن الجرجاني اهتم باللغة وأبرز الصلات القائمة بين الكلمات التي تؤلف الجملة، كما اهتم بالعلاقات القائمة بصورة متبادلة بين وحدات الكلام، وهذا ما أكده في النظم إجمالا، كما أنه أكد أن الهدف من اللغة ليس إعلام السامع بمعاني المفردات، ومعاني الكلام تقوم على الإخبار و النفي، أي أن اللغة وضعت من أجل التواصل فهي ظاهرة اجتماعية لا فردية، ونخلص من كل هذا ومن النظم الذي أكد عليه الجرجاني إلى أن اللغة تعمل كمـجموعة لها روابط معينة، وبمراعاة تلك الروابط تؤدي اللغة غايتها التوصيلية .

وهكذا فإن نظرة الجرجاني الأدبية للبنية التركيبية يأتي من إدراكه لأهمية العمل الأدبي من الداخل فيكون البناء النصي بمستوياته المختلفة الصوتي واللفظي، المعنى و التركيب محل مدارسته النظم " الذي ينظر إليه من حيث قدرته على توليد النسق المميز للأثر الأدبي "[35]. يكشف عن العلاقات المتآلفة والمنسجمة الناجمة عن حركة النظام النصي وتماسك عناصره، ومن ثمة فالجرجاني

فضل التفصيل والاستفاضة في البحث عن البنية التركيبية من خلال إرساء قواعد نظرية النظم التي تعد بحق أهم نظرية ساهمت في عملية الكشف عن جماليات البيان العربي و مكامن الإبداع في النصوص الأدبية.

وكخلاصة لكل ما قيل فإننا نرى أن نظرية الجرجاني اللغوية لها مكانتها في علم اللغة الحديث، فقد جاءت بالأسس نفسها التي تقوم عليها القواعد التحويلية التوليدية من جهة، والنظرية البنيوية الوظيفية من جهة أخرى. وميزة نظرية الجرجاني أنها تجمع و توحد الأولى والثانية، وهذا ما تسعى إليه أحدث الدراسات اللغوية. ثم أن هذه النظرية يمكن أن تساعد في توضيح بعض الجوانب التي لم تحل في العلم الحديث كتحديد المستوى الذي يجري فيه التقسيم الوظيفي إلى موضوع ومحمول وهو المستوى الإخباري الذي يشترط فيه الإفادة، ثم بيان أن التقسيم الوظيفي للجملة ليس ظاهرة عامة تخضع لها اللغات و الجمل جميعها.

وصفوة القول أن تراثنا اللساني العربي غني جدا ، و يستحق أن ينفض عنه الغبار و ينظر إليه، ففيه نظرات و آراء و مبادئ لا يمكن أن تستغني عنها اللسانيات المعاصرة .

الإحالات

[1]- بلومفيلد : مجلة اللغة ص 22.

[2]دلائل :الإعجاز الجرجاني ص 41

[3] سورة الرحمان : 1،2،3

[4] الجرجاني دلائل الإعجاز ص 64

[5] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص 91

[6] سورة الأنبياء /62

[7] الجرجاني : دلائل الإعجاز ص 53

[8] انظر المدخل إلى الدراسة البلاغية ص 179

[9] الجرجاني ، ط2 – ص 264

[10] دلائل الإعجاز ص 406

[11] المصدر نفسه ص 405

[12] نفسه ص 170.

[13] نفسه ص 176.

[14] المرجع نفسه و الصفحة نفسها .

1- عبد العزيز عبد المعطي عرفة : قضية الإعجاز القرآني و أثرها في تدوين البلاغة العربية ص 623

[16] ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة و الأسلوبية ص 246.

[17] البقرة : 5

[18] ينظر المرجع السابق ص 247

[19] ينظر الجرجاني : أسرار البلاغة ص 14.

[20] الجرجاني دلائل الإعجاز ص 194

[21] نفسه 196

[22] المصدر نفسه 198

[23] انظر كتاب الشعر ص 240

[24] دلائل الإعجاز ص 366

[25] دلائل الإعجاز مقدمة بقلم فايز الداية ص 12

[26] نفسه ص 39

[27] نفسه ص 42

[28] دي سوسير : محاضرات في الألسنية العتمة ، ترجمة يوسف غازي ص 4

[29] دلائل الإعجاز ص 6

[30] محاضرات في الألسنية العامة ص 5

[31] نفسه ص 62

[32] دلائل الإعجاز ص 63

[33] دلائل الإعجاز ص 174 175

[34] نفسه ص 185

[35] يمني العيد : معرفة النص ص 104.